القصب وصناعتهُ في حلب

لجناب الخواجا حبيب يوسف شحرور الحلبي احد ارباب هذا الفنّ

انَّ ما ورد في المشرق (٤ : ٤٤١) عن صناعة الحياكة في الزوق وشهرة اصحابها في صنيع الانسجة حدا بنا الى ان نضع نبذةً وجيزة في صناعة أُخرى شريفة لها مع النساجة علائق بيّنة ألا وهي صناعة القصب التي لم نجد لها ذكرًا حتى الآن في مجلّاتنا الشرقيَّة مع عظم شأنها وجلالة قدرها

اصل صناعة القصب ومقامها

واصل هذه الصنعة من الشرق بلا مراء فانها كانت في غابر القرون زاهيةً زاهرة في انحاء الهند والعجم وما يجاورهما من البلاد وقد دخلت في اصقاعنا الشاميَّة منذ نحو اربعمائة سنة . قيل ان بعض ارباب هذه الصنعة هاجروا من العجم واستوطنوا حلب فاخذها عنهم الحلبيون وتعلَّمها اهل مصر والاستانة العليَّة ولم يزالوا يتعاطونها حتى الان دون غيرهم . ويؤيد هذا الرأي عن اصلها العجمي ان اكثر الفاظ هذه الصنعة فارسيَّة او تركيَّة . ومما لا شبهة فيهِ ان الحلبيين برعوا في عمل القصب ونالوا في ذلك قصب السبق وقد اتسع نطاقهُ بينهم حتى بلغ عندهم عدد العملة الذين يشتغلون بهِ نيفًا واربعة آلاف عامل كانوا يرتزقون بهِ بل كان مزاولو هذه الصنعة عراض البطون واسعي الثروة لإقبال الجمهور على شغلهم . امَّا اليوم فقد كسدت سوق هذه الصناعة لتهافت اهل بلادنا على المنسوجات الاوربيَّة والتقليد الانكليزي فنبذوا بضاعة مواطنيهم مع صفاقتها ودقَّة صنعها وبذلوا الدرهم عن يد سخيَّة لاستجلاب البضائع الاجنبيَّة مع ان كثيرًا منها تقليد بحت لاشغال بلادنا بعيد عن جودتها . ولذلك قد قلَّ اليوم عدد عملة القصب في حلب الى اقلّ من الف عامل يكدون ويجدّون وهم لا يكادون يحصلون على بلغة عيشهم

وكانت اعمال القصب في سالف الزمن رائجةً في كل انحاء الشام لاسيا حمص ودمشق ثمَّ في بغداد وازمير وصنعا وهي اليوم منحصرة في بغداد وحمص والزوق ودمشق يقدم عليها السيَّاح فيعجبون من هذه المنسوجات المقصَّبة ويشترونها باثمان طيبة . وكذلك

ترى شيوخ العربان وامراء القبائل لا يزالون يلبسون الثياب المقصَّبة كالكفوف والمشالح يتباهون بها ويتفاخرون وهي في حقيقة الامر تفوق ما سواها من الملابس الفاخرة التي تليق بالسادة والامراء

كيفيَّة شغل القصب

يكون قصب المنسوجات امَّا فضة خالصة وامَّا فضَّة محلاَّة (ملبَّسة) بالذهب. ولا بدَّ لصنع كليهما من ثلاث صنائع تستلزم بعضها بعضاً بحيث اذا تعطَّلت الواحدة منها توقَّفت البقيَّة. ولوجود هذه الصنائع الثلاث في حلب قوي اهاليها على حفظ سرّها واحكام صنعها. ولولا ذلك لتلافت وصارت نسياً منسيًا

والصنعة الاولى التي تتقدم الصناعتَين الاخرَيين هي تمحيص الفضَّة وهي تُعرف في حلب بالرِوباص. ولاربابها في ذلك حذاقة عجيبة تراهم يبلغون في تنظيف الفضة وتنقيتها ما لم يبلغهُ الاوربيون مع كثرة ادواتهم. واذا اتتهم سبيكة فضة من اوربة مهما كانت خالصةً من الخَبَث لا يرونها صالحة لشغلهم الَّا بان يعيدوا تمحيصها على مألوف عادتهم: ولهم في ذلك طريقة تفرَّدوا فيها وهي انهم يتَّخذون بوتقةً (او جورة في الارض) مصنوعة من مادة يدعونها القُصرمل وهو الرماد الباقي من زبل الدواب الخالص بعد ان يُحرق في الحمامات (١. فيضعون فيها الفضة ويوقدون فوقها الحطب فاذا ذابت الفضة مزجوها بكميَّة معلومة من الرصاص وهذا الرصاص يرسب في البوتقة مع الموادّ الغريبة والمعادن الممزوجة عند تمام تصفية الفضة. ولذلك علامات يعرفونها وفي معرفتها سرّ صناعتهم

ولهؤلاء الخاصين حذقٌ في تلبيس الفضَّة ذهباً اذا ما ارادوا ان يتخذوا القصب المذهَّب. فهم يعمدون الى سبائك الذهب الناصع اللون الحسن المنظر ولذلك كانوا يفضلون ذهب البندقيَّة على غيرهِ امَّا اليوم فيتَّخذون النقود المسكوبيَّة لِنُدرة الذهب البندقي. فيطرقون هذه السبائك و يرققونها حتى تصير ارقَّ من ورق السيكارة بطول

١) ولهذا الرماد تأثير عظيم في تنظيف الفضَّة فلا بدَّ ان يكون خالصاً من كلّ مادَّة غريبة. بل لا يصلح هذا الزبل في وقت الربيع لما تأكلهُ الدواب آنئذٍ من المشيش. واذا كان الرماد غير صرف تقطَّعت اسلاك الفضَّة وصعب ترقيقها. ولا يصلح هذا الرماد للعمل اذا مرَّ عليهِ خمسة عشر يوماً

وعرض معلومين(١ ثمَّ يأخذون صلانج الفضة التي تكون على طول ثلاثة ارباع الذراع فأزيد وهي مستديرة الشكل يبلغ ثخنها قيراطين فيجعلون اوراق الذهب على هذه السبائك الفضيَّة ويصقلونها صقلًا محكمًا بحيث يلتصق بالفضَّة ويصيحان كمعدن واحد ومهما رُقّقت اسلاك الفضة يبقى عليها الذهب ولا يزال لونهُ الاصفر ظاهرًا بعد ان يصير قصبًا ويُنسج بالنول ويبقى نسيجهُ بماء الدهر حتى لو اراد احد ان يستخلص الذهب من هذا القصب بعد خمسين سنة لأمكنهُ ذلك

والسبائك بعد تمحيصها سواء أُلبست بالذهب او لم تُلبَس تُمدَّد بالتدريج الى ان تصبح برفع اسلاك التلغراف. ويتَّخذون لذلك صفيحة من الفولاذ يثقبونها بثقوب عديدة مختلفة الكبر فيدخلون هذه السبائك في اكبر الثقوب ويسحبونها حتى تترفَّع. ثمَّ يدخلونها في ثقب ثانٍ اصغر من الاول. وهكذا بالتدريج الى ان تصير السبيكة كسلك التلغراف كما سبق. والفضة التي تُصرف في كل سنة لصناعة القصب تبلغ نحو قنطارين

(الصنعة الثانية) وهي صنعة الألتنجي. والالتنجيّ بالتركيَّة صاحب الذهب ومن هذا الاسم يُستدلّ على انّ القصب كان سابقًا كلهُ ملبَّسًا بالذهب. واستعمال قصب الفضَّة حديث العهد لا نكاد نجد لهُ اثرًا في المنسوجات التي حيكت قبل مئة سنة كما ترى في الحلل الكهنوتيَّة وغيرها. امَّا الشغل المختصّ بالالتنجي فهو ترفيع الاسلاك فانهُ يستلمها من الخاص بغلظ الاسلاك التلغرافيَّة وينبغي عليهِ ان يرقّعها الى ان تصير في دقَّة الشعر بل ارفع منهُ. واذا بدأ في الشغل اجاز السلك في ثقب محدَّد فيقشط منهُ نحو خُمسهِ ليزيل بذلك رائحة الرصاص الذي دخل في تنظيفهِ كما سبق. والرائحة المذكورة تضرّ بهِ ما لم تُنزع عنهُ. ثمَّ يعمد الى سيف مُجوهر بجوهر الصَّوان (راجع المشرق ٣: ٥٨٠) ذي ثقوب متتابعة اصغر فاصغر فيسحب منها السلك بالتدريج الى ان يبلغ الدرهم الواحد طول ثمانمائة ذراع برفع متساوٍ. وللثقوب مقاييس غاية في الضبط لا يصيبها خلل الَّا تلافوهُ. امَّا اذا سُحب السلك فلا يزال يتمدَّد دون ان ينقطع اللهم الَّا نادرًا. واذا كثر تقطيعهُ عرفوا بان الفضَّة لم تُمحص جيدًا واعادوها الى صاحب الرِّباص على حسابهِ. ولصنعة الألتنجي اسرار يضنُّون بها لئلا تشيع فيخسروا ارباحها وهم يتوارثونها ابًا عن

١) وكلُّ مئة درهم تلبَّس بنصف درهم ذهبًا الى درهمين حسب طلب اصحابها

جدّ فيتلقّنون اعمالها . ومعلّمو هذه الصنعة لا يتجاوزون اليوم ٢٥ معلماً ومع قلة عددهم لا يزيد دخلهم اليومي على العشرين غرشاً

امّا (الصنعة الثالثة) بعد تمحيص الفضّة وترفيعها فهي صنعة القصب وبها تمام هذا الفنّ الجميل . وعملهُ قائم بثلاثة امور صبغ الحرير ثم بسط الفضة ثم لفّ الفضة على الحرير

فالحرير الذي يستعمل في شغل القصب يجب اولاً قصرهُ وتبييضهُ بالصابون ثم يُصبغ الواناً حسب انواع القصب التي تربي على الثلاثين نوعاً والمعلم هو الذي يتفنّن في هذه الاصباغ وتركيبها مع ما يلائمها من الفضة . والصباغ الموافق للقصب لا يكون الّا صباغ الزعفران وكانوا من قبل يتخذون لهذه الغاية الزعفران العجمي او الاناضولي ثم استبدلوهُ منذ عهد قريب بزعفران اوربي الجنس ثمناً وانصع لوناً

امّا بسط الفضة فيحصل عليهِ بان تُضغط اسلاكها فتنبسط وتصير لامعةً . وهم يتخذون لذلك بكرتين من الفولاذ الجيّد (الصفّي) يدعونهما جاجاً (ويقال چرخ . والچرخ بالتركيَّة الدولاب) تكون الواحدة اكبر من الاخرى وهذه البكرات يوجد منها اصناف كثيرة متباينة بالكبر ولعلهم كانوا يستحضرونها سابقاً من البندقيَّة لانهم الى هذا اليوم ينسبون الجيد منها الى تلك البلدة وكانت صغيرةً وهي اليوم تُستحضر من بلاد أُخر . وهذه البكرات مع صلابتها سريعة العطب تتلف لاسباب طفيفة كرجيع الذباب وعرق الانسان وما اشبه ذلك واذا تلفت فلا سبيل لاصلاحها ويسقط ثمنها من الخمسين ليرةً الى بضعة قروش ولا نفع منها . ولذلك ترى صاحبها لا يدّخر وسعاً في صيانتها وتنظيفها بقطعة من الكتّان الخشن واذا فرغ من الشغل يقيها بقماش مشبع بشمع العسل . واذا اهملها مدة بدون الشغل عطبت ما لم يلفّها مشمّعاً سميكاً ويمسحها بالكتّان من وقت الى آخر وهي مع ذلك في صلابةٍ لا تعمل فيها المبارد ويكون الجلخ مصقولاً كالمرآة بتحديبٍ قليل

امّا كيفيَّة العمل بهاتين البكرتين فتكون بتركيب الصغرى فوق الكبرى بقالب مخصوص لذلك وبين هاتين البكرتين يُدخل سلك الفضة وهو مستدير فينضغط وينبسط وبانبساطهِ يلمع . وفي بسطهِ وتلميعهِ دقّة الصنعة لانهُ اذا خرج على استدارتهِ ذهبت منهُ الفائدة ولا بدّ من تمحيصهِ مرّةً ثانية . ولكي تزيد سهولة دوران الجلخ يركّبون على البكرة

التحتانية اطارًا من خشب ذا اربع قطع من حديد يُعلّق في اطرافها اثقال من رصاص يدعونها حذّافات. ولمّا كانت اسلاك الفضة تتباين عن بعضها برفعها جعلوا للجلخ خشبة معلّقة بهِ بحبال على شبه القبّان ويضعون على هذه الخشبة الثقل اللازم لبسط الفضّة فتكبس البكرة العليا على سلك الفضّة وتبسطهُ. واذا خرج من الجانب الآخر امسكهُ الصانع باصبعهِ وضغطهُ قليلًا فيخرج مرفرفًا وبترفرفهِ يلتفّ على بكرة معدّة لهُ التفافًا محكمًا. وقد كان الصانع من ذي قبل يقاسي عذابًا كليًّا في هذا اللفّ لسبب عرق اصابعهِ في الصيف وبرودتها في الشتاء. فكان البرد يجمّد اصابعهُ فلا يستطيع ضغط السلك. وقد وفّقنا الله الى اختراع آلة نتدارك بها هذا الخلل فلا يحتاج الصانع الى ان يمسّ السلك باصابعهِ. ومن هذه الآلة في حلب نحو عشرين جلخًا وكلٌّ يبسط من الفضّة ما يكفي لخمسة دواليب (١

واعلم انّ قوام صنعة القصب يتمّ بلفّ الفضّة على الحرير. واداتهُ هي الدولاب يدور في جهاز اشبه بصندوق ذي اربع قوائم في اطرافهِ مع لوحتين عليا فسفلى يدعونهما غطاء وارضًا. وضمنهُ طارتان من خشب مساحة الكبرى اربعة وعشرون قيراطًا والصغرى ستّة عشر. والحركة تتجاوز من الصغرى الى الكبرى بواسطة وتر. وللطارتين اربع قوائم متقابلة الواحدة منها اعلى من وجه الدولاب يركّب عليها ثلاث قطع من الفولاذ تسمّى شكوكًا (مفردها شكّ) وهي مثقوبة فيُدخل الحرير بهذه الثقوب ويُجعل في الشكّ بكرةٌ صغيرة عليها الفضّة المبسّطة فاذا دارت الطارة الصغرى

(١) واملّ صنعة القصب وُجدت بعد صنعتي تغميس الفضّة وتلبيسها بالذهب. وممّا يستدلّ بهِ على ذلك وجود صنف من الفضّة الملبّسة بالذهب كان يرقّقها الالتونجي فتدعى صرما ثمّ كان يبسطها فتُعرف باسم تيسل. وكان يؤخذ منها كميّةٌ وافرة الى الحجاز والعجم وغيرهما لتطريز الاقمشة. وكان الصرما تطرّق سابقًا بالمطارق بدلًا من بسطها بالجلخ. ومن امثال العامّة اليوم «فلان عندهُ دقّ الصرما» اشارةً الى العمل المتعب. وكان عامل الصرما يُعرف بالصرمجي او الصرماكاش. فلمّا وُضع بعدئذٍ فنّ القصب بقي اسم الصرمجي على اصحاب هذه الصناعة الجديدة

ثمّ قلنا انّهُ لا بدّ لصنعة القصب من الجلوخ لبسط الفضّة واستوائها. فلو كانت هذه الجلوخ موجودة سابقًا لكان اصحاب الصرما استبدلوا طرق الفضّة ببسطها واقتصدوا من التعب والكلف والوقت شيئًا كثيرًا لان درهمًا من الفضّة طولهُ عشرون ذراعًا يُبسط بعشر دورات من الجلخ لا تستغرق الّا نصف دقيقة امّا طرقها فلا يتمّ باقلّ من ربع الساعة مع خلل في التساوي المنتظم

أدارت الكبرى والكبرى تدير الشكوك باوتار من الحرير فتلتف الفضة على الحرير الخارج من ثقب الشك. وينتهي من ثم الى دواليب مخصوصة تجرها الاوتار ويلتف على بكرات من الخشب مجهزة لهذه الغاية. فعلى الطارة الصغرى ثلاثة اوتار لالف القصب وعلى الكبرى ثلاثة اوتار للشكوك وثلاثة أخر لسحب الحرير بعد التفاف الفضة عليه. ويكفي للدولاب عامل واحد

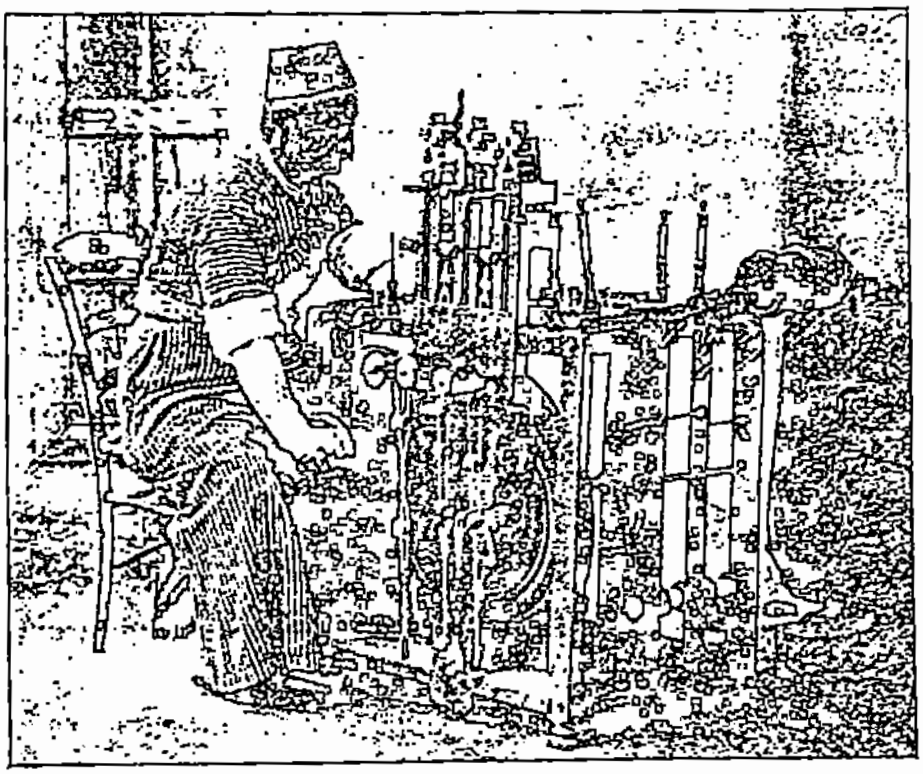

صورة دولاب القصب

وصنعة القصب كانت محصورة كما قلنا سابقاً في البلاد المحروسة في حلب والاستانة العلية ومصر وقد بطل من الاخيرتين منذ عهد قريب. اما اوربة فان معامل قصبها تختلف عن قصبنا الشرقي والذي نعرفهُ منهُ اليوم لا يشبه شغلنا

ويوجد في زمننا نوع من القصب يدعى اللاهي نسبةً الى اللاه ولا نعلم أيكون اصلهُ من بلادنا ام لا. اما البندقية فكان لها سابقاً شهرة في القصب ولعلَّ اهل الاستانة

اخذوا صنعة القصب عن عمّة البندقيّة ثمّ انتقلت من الاستانة الى حلب ومهر فيها الحلبيون. وقد اشتهر منهم قوم تخصّ منهم بالذكر السادات بني الشربجي من افاضل المسلمين وعائلات الخواجات عرقتنجي وغزالة وخوكاز وفتال ومشحور وغيرهم من نصارى الشهباء.

وكان اتّساع هذا الفن في حلب اتساعاً عجيباً وكان ينسج القصب ايضاً في معامل عديدة حتى انّ عدد الانوال للمنسوجات المقصّبة كان بالغاً قبل خمسين سنة نيّفاً والفي نول. واليوم قد بطل نسيج القصب حتى لم يبقَ ولا نول واحد فتعطّل من جرّاء ذلك نحو خمسة آلاف عامل

وفي النهاية لا نقدر الّا نتأسّف على ضياع صناعتنا الشرقيّة. متمنين من اصحاب الامر ان يعيروها نظراً شافقاً وكذلك نطلب الى ذوي الثروة ان يصرفوا همتهم العليا الى هذه الفنون التي يكسبهم احياؤها اسماً طيّباً ويفتح اواطنيهم ابواباً واسعة للرزق فضلاً عمّا يربحون منهم من المال الطائل لو ساعدوا اصحابها في اعمالهم الخطيرة. ألهم الله اهل الخير ما فيه شرف البلاد ونفع العباد فهو السميع المجيب

حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

وبينما راحيل تتفوّه بهذه العبارات كان بصرها منخفضاً فوقع على يديها المثقلتين بالاسورة الذهبيّة فاحمرّت وجنتاها لاول مرّة خجلاً من هذا الاسراف الذي وجدته خالياً من كل فائدة فاستهزأت به مزدرية وقائلة: «ماذا عسى ان تنفعني هذه الحلقات المدنيّة المطوّقة لمعصمي»

ومن الغريب ان الشفقة التي امتزجت بنفسها لم تقتصر على توسيع دائرة عواطفها بل انها اعلت ايضاً درجة فهمها وذكائها واطلعتها على كثير من الامور الزعجة والمناقضات العديدة التي لم تكن لتتنبه اليها من قبل رغماً عن تأدبها بكثير من المعارف